مجلة سيميائيات
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973
المجلد: 17 العدد: 02/ مارس 2022
ص: 556 - 563

دلالة الإيحاء الصوتي في التعبير القرآني
سورة التكوير مثالا

THE SIGNIFICANCE OF PHONEMIC SUGGESTION IN QURANIC EXPRESSION SURAT AT-TAKWIR AS AN EXAMPLE

جبار حسن [1*]، مليلني محمد [2]
[1] جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر) hasan.djebar@univ-mascara.dz
[2] جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر) medmel1992@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021/05/26 تاريخ القبول:2021/08/24 تاريخ النشر: 2022/03/28

ملخص: إن القرآن الكريم بما امتاز به من تآلف وتناسق وإيقاع في حروفه ومفرداته وجمله وفواصله؛ أعجز فصحاء العرب وبلغاءهم عن الإتيان بمثله؛ فالقرآن يختار من الألفاظ أدقها وأدلها على المعاني؛ ولو رمنا وضع لفظ مكان آخر فيه لبان الخلل ولفسد المعنى، والمعاني – كما هو معلوم - نفسية منبعها الأعماق؛ وهي كثيرة ومتشعبة لا حصر لها؛ أما الألفاظ والصيغ فخارجية؛ وهي - بلا شك – محصورة ومتناهية لا قدرة لها على استيعاب المعاني التي لا نهاية لها، من هنا كان ميل الناس إلى الموسيقى أكثر من ركونهم إلى الألفاظ والعبارات؛ وذلك للقدرة الكبيرة للموسيقى على التعبير عن مكنونات النفس البشرية ومشاعرها التي تقف الألفاظ دون التعبير عنها عاجزة مهما علا كعب صاحبها؛ شاعرا كان أو ناثرا؛ ومهما أوتي من أسباب الفصاحة والبلاغة، فإذا ما قصُرت العبارات والألفاظ عن أداء المعنى؛ جاء دور الموسيقى والوزن والإيقاع لتسد نقص اللغة وقصورها؛ وهذا ما يسمى بالإيقاع الصوتي الإيحائي أو ما يعرف بـ "الجَرْس".

الكلمات المفتاحية: الإيقاع، الصوت، الإيحاء، الفاصلة، الدلالة.

ABSTRACT : The holy Qur'an, with its harmony, consistency and rhythm in its letters, vocabulary, sentences and breaks, made the Arabs eloquent and rhetoric unable to come up with the same. The Qur'an choose from the most accurate expressions and it's evidence for meaning; and if we thought to put a term in another place the meaning will be spoiled and imperfect, and the meaning - as it is known – are psychological originating in the depths and they are many and complex, countless; as for the words and formulas are external; and it is - without a doubt – confined and finite, unable to comprehend endless meanings, therefore people's tendency to music more than their reliance on words and phrases; this is due to the great ability of music to express the component and feelings of the human soul, in which words are unable to express them, no matter how good it is, poetry or a prose; whatever the causes of eloquence or rhetoric, if phrases and expressions fail to fulfill the meaning; it was the role of music, weight, and rhythm to fill in the deficiency and limitations of language. This is called the voice suggestive rhythm, or what is known as "Tone of voice".
Keywords: The rhythm, the sound, the suggestion, the break, the connotation.

---

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

إن بلاغة الكلام تكمن في مطابقته لمقتضى الحال؛ أي مطابقة اللفظ للمعنى مطابقة دقيقة بحيث يكون اللفظ ثوبا للمعنى وصورة له؛ من غير أن يلحظ السامع زيادة في اللفظ أو قصورا عن أداء المعنى المراد، وبقدر ما يكون هذا التوافق قائما بين اللفظ والمعنى يكون الكلام بليغا، ويعد صاحبه من أهل البيان؛ وهكذا كان البلغاء من الناس خاصة أصحاب اللسان العربي الذين عرفوا بهذا الشأن، لكن هل بلغوا من الدقة غايتها بحيث يغدو اللفظ صورة أمينة للمعنى من غير قصور ولا سرف؟

إن المعاني تنبع من النفس وتنبعث من الأعماق؛ فهي كثيرة ومتشعبة ودقيقة وواسعة، والقوالب والألفاظ تأتي من الخارج وهي معدودة ومحصورة؛ وأنى للقوالب المتناهية أن تستوعب المعاني التي لا تكاد تتناهى، كما أن العبارات والكلمات؛ مهما كثرت وغصت بها المعاجم؛ فليس في مقدور المتكلم أن يأتي لكل معنى بلفظه المطابق له؛ فقد يأتي بلفظ مقارب أو مشابه مما يسمى بالمترادفات؛ ولا يستطيع ساعة الكلام تمييز الفروق الكائنة بينها؛ فيجعل اللفظ لغير معناه المراد.

ولأجل هذا ما يزال الناس يميلون إلى الموسيقى أكثر مما يركنون إلى الألفاظ والعبارات؛ لقدرة الموسيقى الكبيرة على التمثيل والتعبير عن مكنونات النفس التي لا تستوعبها القوالب والألفاظ؛ وهكذا؛ مهما بلغ الشاعر أو الخطيب أو الكاتب شأوا في البلاغة والفصاحة؛ فإن القصور يبقى ملازما له في بعض أحواله.

ومن ثم كان هناك اعتناء خاص بالجرس والإيقاع الصوتي الموحي في القرآن الكريم؛ الأمر الذي وقف أمامه العرب عاجزين عن مجاراته أو تقليده؛ يقول الرافعي: «فلما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته وكلماته في جمله ألحانا لغوية رائعة كأنها لائتلافها قطعة واحدة؛ ولم يفتهم هذا المعنى؛ وأنه لا قبل لهم به؛ وكان ذلك أبين في عجزهم.» .[1]

أما القرآن الكريم فيختار من الألفاظ والمرادفات أدقها وألصقها بالمعنى؛ بحيث لو ذهبت تستبدل لفظا بآخر لظهر الخلل وفسد المعنى، فإذا ما قصرت العبارات والألفاظ عن أداء المعنى ودقته؛ جاء دور الموسيقى والوزن والإيقاع ليسد نقص اللغة وقصورها؛ وهذا ما يسمى بالإيقاع الصوتي الإيحائي أو ما يعرف بـ "الجَرْس".

2. مستويات الإيقاع الصوتي الإيحائي:

1.2 مستوى الحروف والحركات:

ويكون الإيقاع الصوتي الإيحائي في مستوى الكلمات وحروفها وحركاتها؛ فالكلمة في العربية مماثلة أو مقاربة لمعناها بجرسها وصوتها؛ توحي إليه وتفيده من غير إحالة؛ يقول ابن جني: «فإن كثيرا من هذه اللغة وجدته مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها؛ ألا تراهم قالوا قضم في اليابس وخضم في الرطب؛ ذلك لقوة القاف وضعف الخاء؛ فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف.» .[2]

والإيقاع الصوتي للحروف والحركات له إيحاءات ويؤدي وظائف سمعية وله تأثير في المستمع يؤدي إليه معاني تقتصر على الإيقاع والصوت؛ تتلاءم مع الموضوع وتفيده؛ رسوله الأذن وأساسه الذوق والسماع؛ لذلك يذهب الباحث عبد القادر فيدوح: «والإيقاع يحدث بالإفادة من جرس الألفاظ وتناغم العبارات لإحداث التوافق الصوتي بين مجموعة من الحركات والسكنات لتأدية وظيفة سمعية والتأثير في المستمع.» .(3)

2.2 مستوى الفواصل:

ويكون الإيقاع أيضا في مستوى الفواصل؛ بحيث تؤدي الفاصلة تناغما مع التنوع في الموقف الخطابي؛ وتسهم بإيقاعها في إيصال رسائل متضافرة مع تغير تصوير التعبير القرآني.

وتظهر الفاصلة عنصرا أساسيا من عناصر اللغة الإيقاعية؛ وقد امتاز القرآن الكريم بحسن الإيقاع على مستوى الفواصل وهو ما يمكننا ملاحظته في انتقالها عبر سياق السورة وأحداثها المختلفة من الرخاء واللين والعمق إلى الشدة والقوة والعنف أو غيرها من المعاني التي يراد إيصالها؛ يقول الرافعي: «هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب.» .(4)

وهكذا نجد في اللغة العربية لجرس الأصوات إيحاءات تتنوع بتنوع الحروف وصفاتها؛ من شديد ورخو ومهموس ومجهور، ومد وقصر، وتنوع في الفاصلة؛ تحيل إلى معان مختلفة يتعرّفها الذوق ويدركها السمع من أقصر طريق؛ وأحيانا لا تتاح هذه المعاني إلا من طريق الإيقاع والجرس كما ذكرنا.

وبما أن القرآن الكريم عربي اللسان؛ فقد بذّ بلغاء العرب وأساطين البيان؛ وبلغ شأوا لا تدركه العرب في الفصاحة والبلاغة؛ وكذلك بلغ الغاية في الأسلوب ذي الإيقاع المعجز؛ هذا الذي لم يأت في القرآن الكريم عنصرا إضافيا أو ثانويا؛ بل هو عنصر جوهري في إيصال المعاني والكشف عن الأحاسيس الدقيقة التي تتخلف اللغة بمفرداتها الجمة عن إدراكها أو أدائها.

3. الدلالة الصوتية :

لقد مر معنا قول ابن جني الذي يشير إلى أن لبنية الكلمة دلالة بينة على الأفعال، وجاء هذا المعنى أيضا عن السيوطي إذ يقول: «فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملا أو صوتا، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملا وأعظم حسّا...» .(5)

1.3 دلالة صفات الحروف ومخارجها:

لا شك أن هناك فروقا بين الحروف والكلمات وتركيبها؛ فالحرف المجهور يختلف عن المهموس؛ والشديد يختلف عن الرخو؛ فالذي فيه انفجار ليس كالذي يمشي معه النفس أو يتمدد معه الصوت، والحرف المستعلي ليس كالمستفل، وكذلك الحركات؛ فحركة الفتح التي تكون بفتح الشفتين واستقامتهما

تغاير حركة الضم التي تتأتى بضم الشفتين وارتفاعهما، وغيرهما الكسر الذي يحدث بخفض الشفة السفلى عن المستوى الطبيعي؛ ولكل ذلك أثر يتركه في أذن السامع ونفسه بالمعنى الذي يوحي به إليه.

ويتجلى الأثر الدلالي للصوت في فهم المعنى وتغيير الانطباع؛ في الحروف؛ سواء منها الصوامت أو الصوائت؛ فالحرف الصامت إذا كان أشد احتكاكا وأكثر جهرا يختلف عنه إذا ما كان أخف احتكاكا أو كان مهموسا؛ فالجهر للأشياء العظيمة والأمور الخطيرة الظاهرة؛ أما الهمس فيكون في الأمور الهينة والخفية واللينة؛ والإحساس يدرك ذلك قبل البحث والتقصي والمقابلة.

ويسوق ابن جني لذلك مثالا فيقول: «من ذلك قولهم: الوسيلة والوصيلة؛ والصاد – كما ترى – أقوى صوتا من السين؛ لما فيها من استعلاء، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة؛ وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة؛ بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء ومماسّته له، وكونه في أكثر الأحوال بعضا له؛ كاتصال الأعضاء بالإنسان وهي أبعاضه، ونحو ذلك، والتوسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسل جزءا أو كالجزء من المتوسل إليه؛ وهذا واضح؛ فجعلوا الصاد لقوتها للمعنى الأقوى، والسين لضعفها للمعنى الأضعف.» .(6)

ثم يأتي التماثل بين الأصوات ليزيد في الطبيعة الإيقاعية إيحاءها ويعطي الصياغة شاعريتها؛ هذا التماثل نجده في تجانس مقاطع الكلمات وتشابه مخارج الحروف أو اتحادها أو اتحاد الحركات بحيث يحدث ذلك إيقاعا موحيا نلمسه في جمال التراكيب وإبداعها؛ ومن ذلك: "عبس" و"همس" ؛ عبس: قطّب جبينه؛ ويكون حين يقابله شيء لا يعجبه؛ فكأنه يهمس إلى نفسه بشدة وعنف ؛ وساعد في ذلك توسط العين بين الشدة والرخاوة واحتكاكها وجهرها؛ ثم تليها الباء بشدّتها وجهرها، أما الهمس فهو الحديث الخافت المتخفي اللين؛ ويفهم من لين الهاء وهمسها وضعف احتكاكها واستفالها؛ ثم تليها الميم بتوسطها واعتدالها اعتدال الفعل ذاته؛ مقابلة الباء وهي مثلها من حيث خروجهما من الشفتين.

2.3 دلالة الحركات والصوائت:

والحرف الصائت؛ كالحركات الثلاث؛ له إيحاءات دلالية تترك أثرها في المعنى وتؤدي وظائف بيانية يستشعرها الذوق وتدركها النفس قبل تحليلها والتعمق في فهمها؛ فالفتحة في بساطتها واستقامتها تختلف عن الضمة في ارتفاعها وعلوها؛ وليست كالكسرة في انخفاضها وهبوطها؛ فمن ذلك استبدال الصائت في قوله تعالى: ﴿ **فاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [المؤمنون، 110] ؛ جاء في السراج المنير: «"فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ" : فتسبب عن إيمانهم أن اتخذتموهم "سِخرِيًّا" : أي تسخرون منهم وتستهزئون بهم وقرأ نافع وحمزة والكسائي بضم السين والباقون بالكسر؛ وهو مصدر سخر كالسخر؛ إلا أن في ياء النسب زيادة قوة في الفعل؛ كما قيل الخصوصية في الخصوص، وعن الكسائي والفراء أن المكسور من الهزء والمضموم من السخرية والعبودية؛ أي تسخرونهم وتتعبدونهم".» (7)؛ فالملاحظ أن: «الدلالة الصوتية في اختلاف الصائتين لها وقع واضح على السمع والنفس؛ فقد بيّن الكسر امتهان النفس واحتقارها؛ إما بالضحك أو الكلام الناقد اللاذع؛ في حين كان للضم وقع أشد

على النفس في تسخير الآخرين نفسيا وجسديا وذلك في تبادل المنافع والحوائج مما يحمل المحتاج على الانقياد باللين للطرف الآخر ليحقق ما يحتاجه.» .[8]

كما نجد ذلك أيضا في العدول الصوتي من حركة إلى أخرى؛ ومثاله كلمة "عَلَيْهُ" في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [الفتح ، 10] ، فالملاحظ في هذه الآية أنها الوحيدة في القرآن برواية حفص عن عاصم التي جاء ضمير الغائب الموصول فيها مضموما؛ فالقاعدة الشائعة في مجيئه في القرآن هي الكسر: "عَلَيْهِ" ؛ ولكننا إذا تأملنا سياق الآية وجدناها تتحدث عن مبايعة المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم؛ فكان حقها التفخيم والتغليظ والتشديد والتوثيق؛ لذا جاء الضمير في "عليه" مضموما؛ إشعارا بذلك التفخيم، وذلك ما لا يوحي به مجيء الضمير على أصل القاعدة مكسورا في هذا السياق.

وفي العدول من الفتح إلى الإمالة في كلمة "مجراها" في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [هود، 41] ؛ حيث نلاحظ أن هذه اللفظة "مجراها" هي اللفظة الوحيدة السياق القرآني كله بقراءة عاصم؛ اتسمت بهذه السمة الصوتية أي الإمالة؛ وحينما نتأمل سياق الآية نشعر بمدى مناسبة هذه اللفظة لجوّها السياقي وهو طمأنة الله تعالى إياهم أن هذه السفينة سوف تجري بمشيئته وأن جريها سوف يكون سهلا رخاء بلا معاناة ولا مشقة؛ ومن ثم جاءت الإمالة في "مجراها" لتعبر عن حركة تلك السفينة وشقها عباب الطوفان في يسر وسهولة ورخاء.

ويتجلى الجرس هنا في استبدال الصوامت أو الصوائت والعدول عن حرف إلى حرف وعن حركة إلى حركة بما يوحي من معان يدركها الذوق ويستشعرها الإحساس وتتأثر بها النفس من غير الرجوع إلى قاعدة معروفة، ونحن مهما حاولنا ضبطه أو تحديده أو تقعيده فلن نستطيع إلى ذلك سبيلا لأنه شيء مقرون وموصول بالإحساس والذوق لا غير.

وأخيرا نخلص من كل ما ذكرنا إلى أن: «النظام الصوتي يستدعي قرائن إيحائية تنطلق منه؛ أي أن الأبعاد الصوتية الناتجة عن هذا النظام الصوتي تتناسب مع الوحدات التركيبية للنص؛ أي الغرض الذي من أجله وجد النص؛ فالأنساق الصوتية مترابطة بدرجة تحقق الانسجام بين الوحدات الصوتية وعدم تنافرها؛ وعدم التنافر يعكس مدى دقة النظام التركيبي للأصوات اللغوية، وكذلك إظهار القيم الجمالية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بإيقاعية الأصوات التي لا تعبر عن ذاتها وإنما تعبر عن معانيها داخل سياقها، والسياق القرآني خير مثال لذلك؛ فالأصوات تعد نواة لتشكيل النص القرآني.».[9]

4. تحليل الأثر الدلالي للإيقاع الصوتي الإيحائي في سورة التكوير:

1.4 بين يدي السورة:

سورة التكوير مكية وتأتي الحادية والثمانين في ترتيب المصحف؛ نزلت بعد سورة الفاتحة وآياتها تسع وعشرون آية، والسور والآيات المكية من القرآن هي التي نزلت في صدر الإسلام؛ «هذه الفترة التي يحدها ثلاثة عشر عاما أمضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة معذبا مضطهدا يقابل الإيذاء والاضطهاد بالمسالمة

مع الدعوة إلى الحق الذي أوحى الله إليه، ومن أهم خصائص المكي المناقشة والحجاج وعرض الأدلة على وجود الله تعالى ووحدانيته وعلى بعث الأجساد مع أرواحها بعد الموت للحساب، كما يغلب على الآيات المكية أن تكون قصيرة ذات وقع في الأذن والنفس تبعث على الرهبة والخشية وتشعر بجلال الله وجبروته، وهذه الخصائص تدعو إليها طبيعة المرحلة التي كانت تمر بها الدعوة الإسلامية.» .[10] ، وهذه السورة التي بين أيدينا لا تكاد تخلو آية من آياتها الكريمة من هذه المعاني.

2.4 مستويات الإيقاع الصوتي الإيحائي:

وفي سورة التكوير نلمس أهمية المستويات اللغوية في رسم المعنى وتوضيحه بشكل يدل على الإعجاز اللغوي في هذه السورة على قصرها؛ فهي تزخر بالحشد الفني الذي تفوق على فصحاء العرب في ذلك الزمان وبذّ أساليبهم البلاغية وسبقهم في كل مستويات اللغة.

وعندما نتناول المستوى الصوتي في هذه السورة نجد اللفظة المفردة في كل آية من آياتها تنبعث منها نغمات وجرس وإيقاع يكاد يستقل بإفادة المعنى وتصوير المشهد في صورة بديعة؛ قبل أن توحي الدلالة المعجمية به؛ فالأصوات الشديدة في مطلع السورة وهي الكاف والدال والباء والهمزة والجيم والطاء؛ توحي بهول الموقف وشدة المقام؛ وقد ارتكز النسق الأول في السورة على صوت التاء المهموس؛ ولكن مع الهمس شدة وانفجار يحقق استنهاض العقول والنفوس ودفعها إلى التفكّر في هذا اليوم العظيم أي يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ** ﴾ [التكوير، 1] : أزيل نورها، ﴿ **وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ** ﴾ [التكوير، 2] : تساقطت وتهاوت، ﴿ **وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ** ﴾ [التكوير، 3] : أزيلت عن مواضعها، ﴿ **وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ** ﴾ [التكوير، 4] : النوق الحوامل أهملت، ﴿ **وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ** ﴾ [التكوير، 5] : جمعت من كل صوب، ﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ** ﴾ [التكوير، 6] : فجرت فصارت بحرا واحدا، وكلها معان شديدة ومواقف قوية تستدعي أصواتا شديدة وقوية تماثلها وتساويها.

والهمس في التاءات المتكررة التي تنتهي بها الفواصل فيه غموض وخفاء وإبهام غير مفهوم؛ يوحي بهول ذلك الموقف العظيم الذي يدفع الناس يومئذ إلى التهامس في ما بينهم متسائلين عن ذلك الحدث المهول.

وفي قوله تعالى: ﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ** ﴾ [التكوير، 15 – 18] ؛ نجد السين المكررة وخفة وقعها في الأذن توحي بظلال النعومة وراحة النفس، وفي "عَسْعَسَ" و"تَنَفَّسَ" هناك جرس يوحي بالمعنى؛ إذ يرسم صورة حسية لإقبال ظلام الليل بآفاقه المترامية؛ ثم انفلات الصبح من مخبإ الليل وسجنه؛ وما يصحب ذلك من صحوة الكون ودبيب الحياة في أرجائه.[11] ، وإن المتلقي ليحس إحساسا بينا بهذا التجسيم الواضح للمعنى المقصود مشكلا في خياله صورة إقبال الليل وانتشاره وانبلاج الصبح وبزوغه؛ وليس هناك ألفاظ تسد مسد اللفظتين؛ ولو عوّضتا بغيرهما لطال الكلام ولوجدنا أنفسنا أمام الحشو دون أن يفي ذلك بالغرض المنشود.

وفي الآيتين السابقتين تكرار لصوتين أو أكثر؛ «فمع اتفاق كلمتي "الْخُنَّسِ" و"الْكُنَّسِ" في بنائهما المقطعي فهما متماثلتان أيضا في صوتي النون والسين؛ وهو ما يصطلح عليه في البديع بالجناس الناقص».[12]

وفي كلمة "عَسْعَسَ" تكرار للمقطع الصوتي "عَسْ" يوحي بالتمدد والانتشار والغلبة، ثم نلمس بالإحساس والذوق - قبل التعرف على المعنى المعجمي للألفاظ – الرتابة والهدوء والاطمئنان في الآيات التالية التي هيمنت فيها حروف الهمس التي توحي بالمعاني السالفة: ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴾ [التكوير، 19] ؛ فكأن الآية تدعونا إلى الاستسلام والاطمئنان بأن الرسول صلى الله عليه وسلم مؤتمن في قوله متمن على الوحي، ثم تأتي الآيات الباقية مراوحة بين الأصوات الشديدة: القاف والتاء والدال والكاف والطاء؛ والأصوات الرخوة أو المتوسطة بين الشدة والرخاوة؛ للتعبير عن المعاني التي تحتاج إلى القوة واللين والشدة والرخاوة في آن واحد: "ذِي قُوَّةٍ" ، "عِنْدَ" ، "ذِي الْعَرْشِ"، "مَكِينٍ" ، "مُطَاعٍ" ، "ثَمَّ" ، "أَمِينٍ" ، "مَجْنُونٍ".

وهكذا في باقي مقاطع الآيات الكريمة؛ نجد للأصوات إيحاءات خاصة تثير في النفس ما يبعثها على قبوله أو النفور منه؛ إلى أن نصل إلى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ** ﴾ [التكوير، 29] ؛ أي لا تتمتعون بالإرادة والاختيار والمشيئة إلا أن يشاء الله ويريد أن يمتعكم بها.[13] ؛ فصوت الشين برخاوته وانتشاره وهمسه في كلمتي "تَشَاءُونَ" و"يَشَاءَ" ؛ ثم حركة الفتحة الطويلة (ألف المد) فيهما؛ يوحيان بإطلاق يد الإنسان وتمتعه بالحرية والسعة في اختياراته كلها.

5. خاتمة:

على ضوء ما مر معنا نستطيع الإجابة عن السؤال الآتي: إلام عزا العلماء علة إعجاز القرآن؟ هل هي جمال الأسلوب؟ أم جودة السبك؟ أم روعة الاستعارة والتشبيه؟ أم الإخبار بالمغيبات؟...

إن العرب الذين تحداهم القرآن الكريم لم تكن لهم دراية بالاستعارة ولا بالتشبيه ولا بفنون البديع والمعاني والبيان؛ بل إن ما عرفوا به كان وميزة لهم ومقياسا عندهم للجمال ووسيلة من وسائل الإحساس؛ ليس إلا الذوق العام البعيد المدى الذي أذكته الطبيعة الصحراوية ونمته البيئة، وزاده صفاء الحس وشفافية المدارك؛ ومن درس العصر الجاهلي والبيئة العربية وجد ذلك بأوضح بيان.

إن إعجاز القرآن للعرب كان في ما تفوقوا فيه على غيرهم؛ بحيث لا يستطيعون أن يدركوا له شأوا ولا يبلغوا له مدى؛ فالوليد بن المغيرة حينما عبر عن مشاعره نحو القرآن قال: "إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة" ؛ إنما كان يعني بقوله هذا الذوق وإثارة الأحاسيس وتنبيه المدارك والوجدان بعيدا عن القواعد التي لم يكن العرب على علم بها؛ الذوق والوجدان اللذان لم يعرف الوليد سببهما ولم يدر مصدرهما ولم يستطع تحديدهما ولا ضبطهما أو تقعيدهما؛ فهي أمور تعرفها النفس؛ ويتذوقها الإحساس ويعجز الإنسان عن تحديدها أو تعليلها بالمقاييس الحسابية أو الضوابط المادية.

وإن مأخذنا لكبير على من يقف بالقرآن عند الحدود البشرية والمقاييس العقلية وحدها معتقدا أن ليس ثمة مرقى بعد فنون البلاغة التي يعللون بها إعجاز القرآن ولا يستحضرون غيرها عند قراءته.

إنه يسلب عقل القارئ ويستولي على روحه ويغرق مداركه وأحاسيسه؛ هذا هو القرآن الذي كان المشركون يتناصحون بالنأي عنه والنهي عن سماعه: ﴿ وَهُمْ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام، 26]، و ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت، 26] ؛ وهو لا يقتصر على الفروع النظرية من مقاصد القرآن؛ على الرغم من أحقيتها واتصالها بالسلوك البشري؛ لكنها ليست كل شيء؛ وليست هي الغاية التي لا يتعداها الإنسان ليحس بالإعجاز ويقف أمام عظمة الله خاشعا مشفقا من جلال الربوبية وعظمة الألوهية؛ بل أراد الله منا أن نكون أداة فعالة لإنماء الذوق والوجدان حتى نستقيم مادة وروحا ونصل إلى شيء من الفقه لِكنْهِ أسرار الإعجاز وحكمة التشريع معا.

لذا كان حريا بقارئ القرآن؛ إذا تقطعت به السبل وأعيته القوالب ولم تسعفه الألفاظ ولا اللغات؛ أن يُعمِل ملكات أخرى تؤهله لتَعَرُّف أعظم كلام وأعلى مقام؛ إنه مقام كلام رب العالمين.

هوامش البحث:

(1) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، ط 9، بيروت، 1973، ص 214.

(2) أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، (تح): محمد علي النجار، المكتبة العلمية، (د ط)، القاهرة، 1955، ج 1 ص 65.

(3) عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، عمّان، 2010، ص 154.

(4) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، ط 9، بيروت، 1973، ص 216.

(5) جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، مكتبة دار التراث، ط 3، القاهرة، (د ت)، ج 1 ص 53.

(6) أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، (تح): محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، (د ط)، بيروت، 1952، ج 2 ص 160.

(7) الخطيب الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، مطبعة بولاق الأميرية، (د ط)، القاهرة، 1285 هـ، ص 593.

(8) خميس فزاع عمير، أثر الاستبدال الصوتي في التعبير القرآني، مجلة جامعة تكريت للعلوم، تكريت، العراق، المجلد ، 19، العدد 05، 2012، ص 283.

(9) فائزة محمد محمود، أثر التماثل الصوتي في التوازن الإيقاعي، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، تكريت، العراق، المجلد 16، العدد 7، 2009، ص 271.

(10) محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله، دار الفكر، ط 3، دمشق، ص 85.

(11) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط 17، القاهرة، 2004، ص 73 بتصرف.

(12) هدى هشام إسماعيل، سورة التكوير – دراسة لغوية أسلوبية – مجلة كلية الإمام الأعظم، بغداد، العراق، العدد 10، 2010، ص 16.

(13) محمد سعيد رمضان البوطي، الإنسان مسير أم مخير، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، ط 2 ، دمشق، 2001، ص 90 بتصرف.